

الطباق في شعر الزهد المغربي

الأستاذ: عكرمي عبد القادر

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

ملخص:

الطباق لغة هو الجمع بين شيئين ، و اصطلاحا هو الجمع بين معنيين متقابلين سواء كان ذلك التقابل تقابل التضاد أو الإيجاب والسلب ، فبأضدادها تتميز الأشياء . ويعد الطباق من المحسنات البديعية التي تطري على النص الجمال الذي ينقصه . والتي تعطي للجملة معناها وتوضح المقصود منها . وقد تزينت به النصوص في لغة الضاد فكان لزاما على كل أديب وعلى كل شاعر أن ينمق به منتوجه ، وهو حال شعراء المغرب العربي عبر التاريخ .

Résumé.

Le langage est la combinaison de deux choses, et le terme est la combinaison de deux objets opposés, que ce soit le contraste ou le positif et le négatif, les anticorps sont caractérisés par les choses. Ce qui donne sa signification à la phrase et clarifie sa signification. Et a été orné avec les textes dans la langue de arabe était nécessaire pour chaque écrivain et chaque poète à être embelli avec lui Son produit littéraire, c'est le cas des poètes du Maghreb à travers l'histoire.

Abstract

Language is the combination of two things, and the term is the combination of two opposing objects, whether it is the contrast or the positive and the negative, the antibodies are characterized by things. Which gives meaning to the sentence and clarifies its meaning. And was adorned with the texts in the Arabic language was necessary for every writer and every poet to be embellished with him His literary product is the case of the Maghreb poets throughout history.

يعرف الطباق عند البلاغيين بأنه جمع بين الكلمات الأضداد، بما يؤكد أن هذه الصورة تمتلك فعالية في إنتاج الدلالة وتشكيل رؤيا الشاعر. هذا التعريف يحتم منهجيا الابتعاد عن تقويم مردودية صورة الطباق الشعرية في انفصال عن باقي الصور الأخرى التي تشترك معها في الطبيعة والوظيفة . فلا فرق من هذا المنظور بين الطباق والقافية مثلا، فهما معا مقومان شعريان ينتج بهما النص رؤياه ودلالته، وبالإمكان أن نفكر في كل الصور الأخرى ذات المردودية الدلالية ، وأن ننظر إليها في إطار اشتغالها النسقي المتزامن. ف"عبد القاهر الجرجاني"ت471هـ¹ الذي اقترح مبدأ عاما لتفسير الصورة الشعرية وكان أكثر عمقا في بيان ماهية الطباق فيخاطب به عقل المتلقي إثر ما يتركه هذا الفن من أثر نفسي (وهل

تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المسئم والمعرق ويريك التئام عين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين) حيث جعل للطباق في الشعر تعريفا عاما هو الجمع بين المتباينات في ربة.

يعد الطباق من المحسنات البديعية التي تعتمد على الجمع بين الشيء وضده التنافر أو التضاد هو ما يبدو عليه الوجود ، بما يجعله يبدو سديما مفتقدا للمعنى ، والشعر نوع من الإدراك. للطباق أثر فني في النصوص الأدبية سواء كانت هذه النصوص شعرية أم نثرية، فالطباق يضيف للنص جمالية رائعة في ظاهر اللفظ والدقة في المعنى، ويجعل للنص روحا ناطقة تؤثر في سامعيه وقارئيه. وهذا الأثر نلمسه أيضاً في القرآن الكريم الكتاب المعجز، فاللفظ القرآني له خصوصية في استخدام الطباق، (يحيي ويميت)، (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود).

وكذلك في الأحاديث النبوية الشريفة ، قال صلى الله عليه وسلم : "خَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٌ" والمقصود في الحديث النبوي بالعين الساهرة عين الماء التي ينام صاحبها وهي تسقي أرضه ، فالطباق يعطي عذوبة للكلام ورونقا ، و يساعد أيضاً في فهم المعنى ووضوحه. ولقد أكثر الشعراء من استخدام الطباق في شعرهم كما باقي المحسنات البديعية، فالطباق حلية بلاغية تضاف الى الشعر من أجل تحسين المعنى، وليضفوا على أشعارهم العذوبة والجمال. وقد اعتمد الشعراء على التضاد في الكثير من قصائدهم ، وما من شك أن الجمع بين المتضادات له إيقاع خاص يكسو الكلام جمالا و رونقا ، " ولكن وظيفة الطباق لاتقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية ، بل تتعداها إلى غايات أسمى ، فلا بد أن يكون هنا كمعنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطار واحد ، و إلا كان هذا الجمع عبثا وضربا من الهذيان ².

ومن الشعراء الذين استخدموا هذا المحسن البديعي امرؤ القيس كما نرى في قوله:

مَكْرٌ مَقْرٌ مَقْبَلٌ مَدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ ³

والطباق في شعر الزهد لم يأت به الشعراء عبثا بل كان مما يفيد المعنى ويقويه ذلك لأن الشاعر استطاع التوفيق بين الشيء وضده وجعل بينهما مناسبة بحيث يستدعي كل منهما الآخر.

ومما ورد لدى شعراء الزهد المغاربة من هذا القبيل كثير يقول سابق البربري:
وقد خانت الدنيا قرونا تتابعوا كما خان أعلى البيت يوما أسافله
وتصبح فيها آمنة ثم لم تكن لتأمن في واد به الخوف نازله⁴
حيث طابق الشاعر بين الأعلى والأسفل في البيت الأول وبين الأمن والخوف
في البيت الثاني ذلك أن القصيدة في أبياتها مبنية أساسا على التمييز بين الناس وبيان
الفرق بينهم أو بين حال الشخص نفسه في زمن معين ثم حاله في زمن آخر. والطباق
هنا أن يجمع في الكلام الواحد بين معنيين متقابلين في الجملة ، والمراد بالتقابل أن
يكون بين المعنيين مطلق التنافي دون نظر إلى نوعه أو مقداره ، فالتقابل بهذا المعنى
الواسع لا يشترط أن يكون التنافي فيه من جميع الصور ، أو من كل الوجوه ، بل يكفي
أن يكون في الجملة ودون تفصيل. واللفظة كما هو واضح داخل هذا السياق تشي بأن
للشعر أسلوبا خاصا في صياغة المعاني ويقول في المقطوعة نفسها :

وعاقبة اللذات تخشى وإنما يكدر يوما عاجل الأمر آجله⁵
فلفظتي عاجل و آجل لهما معنيين متقابلين فقد يسر الإنسان في وقت ما لكن هذه
المسرة قد يأتي ما يعكرها كان ذلك عاجلا أم آجلا. وهاتان الكلمتان مع تضادهما في
المعنى إلا أن توازنهما من حيث العروض هو الآخر متماثل. عاجل " فاعل" ، آجل
"فاعل". وقد أدى هذا الطباق إلى تأكيد الصورة وبالتالي تأكيد المعنى
إن خاصية التضاد في هذه الأشعار وجدناها كثيرة و دون تحديد نوع الكلمة فقد يكون
ذلك بين الأفعال أو بين الأسماء هذه الثنائيات المتقابلة هي نوع من التتميق الشعري ،
يلاحظ ذلك من خلال هذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر.

فَيَا أَسْفِي مِنْ جُنْحٍ لَيْلٍ يَقُودُهَا وَضَوْءُ نَهَارٍ لَا يَزَالُ يَسُوقُهَا⁶
ظهر التضاد في الفعلين (يقود - يسوق) وظهر التضاد في الأسماء (جنج - ضوء) ثم
(ليل - نهار) و قد يفسر هذا الطباق في البيت الواحد لتلك الانفعالات الداخلية التي
يعاني منها الشاعر، نرى هذا الأمر. كذلك في هذا البيت :

وَأَنَّ الْمَنَايَا لَيُذْرِكَنَّ مَنْ وَنَى فِي الطَّرِيقِ وَ مَنْ أَرْكَضَا⁷
هذا التضاد الواقع بين الفعلين (ونى و أركضا) اللذين يخضعان لقضاء الموت ما
هو إلا استسلام من الشاعر لمصيره و صورة واضحة لهذا الخضوع التام و لكن المتلقي
يستمتع بهذه الأشعار من خلال ذلك التصوير الموحى و الأسلوب الرشيق البعيد عن

التعقيد الشكلي أو المضموني - مع اعتماد تلك المحسنات البديعية لإعطاء إيقاع يثري هذه النصوص و من هذه النماذج كذلك :

نَهَارٌ مُشْرِقٌ وَظَلَامٌ لَيْلٌ	أَلْحَا بِالْبَيَاضِ وَ السَّوَادِ ⁸
يَا لَذَّةٍ قَصُرَتْ وَطَالَ بَلَاؤُهَا	عِنْدَ التَّدَكُّرِ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ ⁹
وَ لَمْ أَجْزَعْ لِلْأَيَّامِ صِرْفَ	يَعُودُ عَسِيرُهَا سَهْلًا يَسِيرًا ¹⁰
وَ لَمْ أَفْرَحْ لِأَنَّ لَهَا إِنْقِلَابًا	يُعِيدُ يَسِيرُهَا صَعْبًا عَسِيرًا ¹¹

ونقوية الجرس الموسيقي ، هذا وفي تكرار حرف الجيم وهو من الحروف التي تتميز بنغم موسيقي خاص دور في إحداث التناغم الموسيقي. ما أن كلا من حرفي الهمزة والعين يقتربان في الإظهار الحلقى مما يجعل الشطر الثاني أكثر موسيقية. شاعر آخر هو أبو جعفر داود الصواف (-291هـ) يقول:

وَأَصْبِرُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَأُخْلَصُ نَفْسِي قَلِيلًا قَلِيلًا¹²

نلاحظ بين اللفظين : "الرغم" و "الرضا" طباقا إيجابيا وضعه الشاعر في بيته هذا لبيان لنا أن صبره أو صبر الإنسان عموما لا بد أن يكون رغما عنه وليس برضاه وهما نتيجة طبيعية لما يتقلب على الإنسان من خير وشر ، وهاتان الكلمتان مع تضادهما في المعنى إلا أن توازنهما من حيث العروض غير تام ويقول :

وَلَمْ أَلْبَسْ لَدُلِّ الْفَقْرِ ثَوْبًا	وَلَمْ أَكُ فِي الْغِنَى بَطْرًا فَخُورًا
وَلَمْ أَجْزَعْ ، وَ لِلْأَيَّامِ صِرْفُ	يَعُودُ عَسِيرُهَا سَهْلًا يَسِيرًا
وَلَمْ أَفْرَحْ لِأَنَّ لَهَا إِنْقِلَابًا	يُعِيدُ يَسِيرُهَا صَعْبًا عَسِيرًا ¹³

وانظر أخي القارئ لهذه الأبيات الجميلة وهذه المتضادات المزينة لنصها التي تشكل جميعا لثنائيات المتضادة في الحياة فالناس إما جزع أو فرح وإما غني أفقر وإما معسر أو ميسر . فالشاعر بنظرته الشمولية للحياة استطاع أن يجمع جميع هذه المتضادات في ريقة .

و لننظر إلى هذا التصوير عنده :

أَرَى الْبَرْقَ مِنْ نَحْوِ الْعَصِيبِ ثَوْدًا	تَغِيبُ طُورًا لَمَعَهُ وَتَرَدَّدَا
دَعِيتُ مُعَلِّمًا إِذْ صِرْتُ شَيْخًا	وَأَيَّامَ الشَّبَابِ كُنْتُ بُورًا
لَئِنْ كَانَ الْمَشِيبُ أَتَى نَذِيرًا	فَإِنِّي سَوْفَ أَدْعُوهُ بِشِيرًا ¹⁴

إن البرق يشق ظلمة الغيوم و ينير الليلة الحالكة، كذا المشيب عند الصواف قد ظهر من ظلمة سواد الشعر هذا التصوير الجميل للشاعر يظهر كذلك في تشبيه أيام الشباب بالأرض البور التي لا ينمو فيها أي زرع كذا توظيف الشاعر لصورة بيانية أخرى في البيت الثالث حين شبه المشيب بالإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بأحد لوازمه وهو نذير فجاءت هذه

ويقول الشاعر الفذ بكر بن حماد (-295هـ):

لَقَدْ جَفَّتْ الْأَقْلَامُ بِالْخَلْقِ كُلِّهِمْ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ خَائِبٌ وَ سَعِيدٌ¹⁵

الطباق موجود في اللفظين شقي وسعيد فهي حال الناس يوم القيامة إما يكونون في الجنة وبالتالي فهم سعداء أو في جهنم فهم أشقياء.

ويقول عبد المؤمن بن موسى المديوني (ت 746هـ)

واحذوب الظهر من سقم ومن كبر واعوج عسبي الذي قد كان منتصبا

وصرت أمشي الهونيا بعدما ضعفت منى القوى واسترد الدهر ما وهبا¹⁶

يظهر الطباق في اللفظين "اعوج" و"انتصبا" ومع اللفظين "ضعفت" و " القوى" ومع اللفظين " استرد و" وهبا" وهذا التضاد هو نتيجة طبيعية لما يتقلب على الإنسان من أحوال تسبب فيها الزمن وقد ظهر التضاد في هذه الكلمات من حيث المعنى لكن توازن كل لفظين من حيث العروض غير تام .

وهكذا فقد عمل الطباق وما رافقه من مقابلة على إحداث التناغم الموسيقي في الأبيات ، هذا بالإضافة إلى ما قدمه من تقوية للمعنى الذي يريد الشاعر تثبيته في الأذهان خاصة ما كان منه في مجال الدعوة والموعظة.

ويقول أبو الربيع سليمان الموحدي (ت604هـ):

كم ذا تَنَامُ وَأَقْوَامٌ قَدْ اكْتَحَلُوا كُحَلَ السُّهَادِ أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ¹⁷

حدث الطباق في كلمتي "السهاد" وهو ذهاب النوم أو الأرق وكلمة النوم وصورة التضاد هذه أو الباق هي شيء عادي عند شعراء الزهد المغاربة ، فقد أكثروا منه في أشعارهم وأتقنوه فالخوف من القادم أو الخوف من كثرة الذنوب أو الخوف من عقاب الله هو العامل الرئيس الذي أحضر ضد النوم وهو السهاد ، ويبدو أن عامل الخوف جعل الأمير يختار أقصر العمر على أطول العمر . فربما قصر العمر يقلل الذنوب و طول العمر يكثرها فيقول في هذا البيت:

قد كان أحمدٌ عُمَرَ المرءِ أطولُهُ فالْيَوْمَ أقصرُ عمرَ المرءِ أحمدُهُ¹⁸
والدارس لشعر الزهد عند المغاربة كثيرا ما يلاحظ كثرة الطباق والمقابلة في هذا الغرض وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تقديمهم البرهان والحجة في موضع الترغيب والترهيب وفي تغير حال الإنسان من حال إلى حال فيكون الدليل قوي والمعنى واضح حين الوعظ أو الاعتبار أو النصيح أو التخويف من القادم أو تذكر الأمم السابقة أو تذكر ظلمة القبر أو هاجس الموت...وقد لاحظنا أن شعراء المغرب العربي لم يقصروا في هذا الشأن من خلال الأمثلة المأخوذة . ومما لاحظناه أن الطباق يمكن أن نقول عنه:

هو محسن بديعي يطري على النص الجمال الذي ينقصه. يعطي للجملة معناها ويوضح المقصود منها

وكما يعلم الجميع أنّ صدى تأثير الحرف يدوم لزمن طويل على فكر الإنسان وحياته، بحيث يوفر لفكر الإنسان صدى مشابه لصدى الحروف. يساعد في ربط الأشياء مع بعضها البعض، فعند نطق الأبيض تجد تفكيرك يربط هذا اللون بالأسود، ألا وهو اللون المضاد للأبيض، وعندما تنتظر للغني فإنّ تفكيرك بشكل مباشر يتجه للفقر ولحاله.

أنواع الطباق التي تعرض لها الشعراء المغاربة:

*** 1* الطباق الحقيقي:**

إن الأمثلة التي ذكرت في الأشعار السابقة يسميها البلاغيون الطباق الحقيقي سواء كان إيجابا أو سلبا ، فطباق الإيجاب مثلا كلفظتي "يمسي" و "يصبح" ، في قول إبراهيم بن محمد بن علي التازي (ت866هـ):

نعوذ بالله من عيش الحسود فما يمسي ويصبح إلا ساخطا كمد¹⁹
أو لفظتي : "الصمت " و " الكلام " في قوله:

والصمت حكم نجاة والكلام ردى فاخش اللسان وكن في الصمت مجتهدا²⁰
وهذا النوع من الطباق قد وجدناه يتكرر في شعر الزهد الذي طرّقناه هذا بوصفه حلية بلاغية تتضاف إلى الشعر من أجل تحسين المعنى بارعون في تجزئة الأوزان ليصنعوا شعراً يحمل الكثير من العذوبة واللحن الموسيقي ، واستعانوا بالكثير من المحسنات

اللفظية والمعنوية في أشعارهم ، فكانوا في شعرهم لا يصفون شيئاً إلا وقاموا بربطه بما يُماثلته ويُشابهه، كقول إبراهيم التازي:

والجهل ويك ظلام ذلة وعمى والعلم نور منير عزة وهدى²¹

فأتى بلفظة "الجهل" وكل ما يلزمها من صفات في لغة عذبة جميلة في الشطر الأول من البيت ثم أتى في صورة مقابلة لها في الشطر الثاني من البيت لفظة "العلم" وكل ما يلزمها من صفات هي في الحقيقة أضداد لما جاء في الشطر الأول . فالألفاظ " ظلام ، ذلة ، عمى " تقابلها الألفاظ " نور ، عزة ، هدى " وجاءت هذه الأسماء متناسقة في الشكل والمضمون ، حيث لا يوجد خلل أو لبس أو غموض ، مع تناسق موسيقي له تأثيره في الوجدان الإنساني.

إن الثقافة العربية الإسلامية التي تشبع بها أهل المغرب جعلتهم ينهلون منها كل منهل فلو أخذنا مثلاً الأسلوب القرآني لوجدنا أن المولى عز وجل -وهو القادر على كل شيء - يبين لهذا المخلوق قدرته في كل الأزمنة وكل الأمكنة مستعملاً توضيح الشيء بضده

يقول تعالى: "تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"²². و كقوله : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "²³.

هذا التقابل الحاصل بين الألفاظ هو الذي جعل كل لفظة توضح الأخرى ، ولهذا قالوا: وبضدها تتميز الأشياء . والعنصر الجمالي في الطباق ، هو ذاك التلاؤم الذي تستصيغه الأذهان باعتبار أنّ المتقابلات توضح بعضها البعض أقرب لفهم المتلقي ، ولذا تأثيره يقع مباشرة على الإنسان ، فيحرك وجدانه ، وشعوره وإحساسه ، ويدفعه إلى العمل والفلاح.

*2*الطباق المجازي :

مثل قوله تعالى: " أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"²⁴.

والمقصود به هنا أنه مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والباطل أو بين والمهتدي والضال ، بمن كان ميتاً فأحياه الله ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به فيميز بين الخير والشر ، ثم من بقي على الضلالة في

الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص و هذا طباق مجازي ، أي من كان ضالاً فهديناه ، فالموت والإحياء هما الضلال والهدى ، وهذا على وجه المجاز . هي نفس الصورة حين يذكر في بيت سابق البربري:

والذكرُ فيه حياةٌ للقلوب كما يُحيي البلادُ إذا ما ماتتِ المطرُ²⁵

فالذكر هنا يحيي القلوب الميتة أي يهديها بعد أن كانت ضالة . فالحياة هنا معناها الهداية والموت الضلالة.

وقد استخدم هذا المحسن البديعي المجازي الشعراء الأوائل كقول أبي الشغب العبسي:

حلو الشمائل وهو مرٌ باسل يحيي الذمار صبيحة الإرهاق²⁶

إن شعر الزهد المغربي غالباً ما يكون خالياً من المبالغة والتعقيد كما لاحظنا ، ويمتاز بوضوح المعاني وبساطتها وعدم التكلف ، ويعتمد على وحدة بيت الشعر وليس وحدة قصيدة الشعر كاملة ، يقوم على اهتمام الشخص بتصوير شخصيته ، ونفسيته ، ومشاعره . قد يلاحظ الدارس ألفاظاً سهلة ، بسيطة في القرون الأولى من الفتح الإسلامي قد يرجع ذلك لسبب أو لآخر ، لكن أسلوب الشعراء بعد ذلك تغير بصورة ملحوظة وكانت أشعارهم تغلب عليها الحركة والكثير من الحيوية ، وأغلب القصائد تكون محتويةً على الكثير من الأفكار والمعاني والمواضيع ، وقصائد مطولة على عكس ما كان في البداية . فالشاعر المغربي في قصيدته الزهدية إذن لا يريد بها مخاطبة الملوك فقط ، وأصحاب الجاه والسلطان ، حتى يزهدوا في الدنيا فهؤلاء على الرغم من أنهم مشغولون عنه بأمور دنياهم ، وقد لا يكثرثوا له ولا لقصائده ، وقد لا يجد منهم أي تشجيع أو عون ، إلا أنه يريد مخاطبة جميع الناس أي حتى الطبقة الشعبية . فمن هنا كان عليه أن يختار اللغة القريبة إلى أفهام الجميع وذلك ليتمكن من التأثير على نفوسهم ، وقلوبهم ويبث بينهم رسالته التي يؤمن بها .

ولغة الزهد تعتمد أصلاً على العاطفة التي يبدعها الزاهد أو الشاعر الزاهد فهي تتبع من القيم والمبادئ الإسلامية التي هي فطرة في الإنسان ثم إن هذه القيم هي تراث متواتر عن الأوائل ، فشعره يمثل فكره فهو لا يتحدث من فراغ فهذه الأفكار والموضوعات التي يطرحها شعراً هو يعيشها في كل لحظة ، ألا ترى أخي القارئ أنه يعبر عن هاجس الموت وأن على كل إنسان أن يتذكر الموت في كل لحظة وأن يتفكر في الأمم السابقة كيف انتهت وأن يقف على القبور و أن يتأمل في من هم بداخلها ، وبالتالي فعليه أن لا يكلف بالدنيا فتغريه وتفتنه بل عليه أن يعتبر ويتعظ وأن يذكر الدار الباقية كل حين وأن

يتزود لها مصداقا لقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ" ²⁷

أما طباق السلب وهو مثل قوله تعالى: " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون." وهنا الطباق بين النفي و الإثبات .في " يعلمون " ونفيها " لا يعلمون". ومثال ذلك من الشعر المغربي ، قول سابق البربري :
وَيَغْسِلُ مَا بِالْجِدِّ مِنْ ظَاهِرِ الْأَذَى
وَلَا يَغْسِلُ الذَّنْبَ الْمَخَالَفَ غَاسِلُهُ ²⁸
ظهر الطباق في لفظة " يغسل " ونفيها "لا يغسل".

وقول عبد المؤمن بن موسى المديوني(ت746هـ):

وقيل يا أيها العاصي نسيت ولم ينس الرفيقان ما خاطا وما كتبنا ²⁹
ويظهر الطباق في كلمة "نسيت" ونفيها "لم ينس". وهذان المثالان الأخيران كل منهما مشتمل على فعلين من مادة واحدة أحدهما إيجابي و الآخر سلبي ، وباختلافهما في الإيجاب والسلب صارا ضدين ، ويسمى الجمع بين الشيء وضده في الأمثلة المتقدمة وأشباهها طباق السلب .ومصدر الجمال في الطباق أو المقابلة هو إثارة الانتباه إلى الفكرة ، وإيقاظ الشعور للموازنة بين الشيء وضده ، وفي ذلك تحقيق للإمتاع الفني ، وتوكيد المعنى ، وإرساؤه في النفوس كام يزداد به الأسلوب جاملاً ووضوحاً.

- الهدف من محسنة الطباق داخل النص الشعري:

إن الطباق من المظاهر البديعية التي تشكل حضوراً بارزاً ولاقئاً في الشعر عامة وشعر المغاربة بالخصوص ، لماله من أثر في تحديد الدلالة المعنوية الواضحة وشحن النص بشحنات نفسية انفعالية كبيرة ، يضاف إلى ذلك نظريته الخاصة التي يمتلكها هذا الشاعر والمتشكلة من حصيلة تفاعله مع مجتمعه الذي يعيش فيه . كل هذا أثر في بروز العديد من المتضادات في أدبه شعراً كان أو نثراً.

يعتمد الطباق على الثنائية بوصفها فناً من فنون البديع والتي اعتمدها العرب الأفحاح في تزيين أدبهم وهو ليس انفعالات نفسية تترجم في مفردات اللغة ودلالاتها فحسب بل أنها فكرة فلسفية قائمة على الربط بين الأشياء والظواهر ، فالمتضادان إذا اجتمعا في نفس المتلقي شعوره بهما أتم وأوضح . يقول أبو الهلال العسكري في الطباق أنه :
"الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين السواد والبياض والليل والنهار والحر والبرد" ³⁰.

فاللغة لا يظهر معناها الحقيقي للمتلقي إلا بعدما يرى يعلم ضدها فحسن لفظة الخير لا يظهر إلا عندما يظهر قبح لفظة الشر وهكذا يسحب عليها كل المتضادات.

يقول سابق البربري:

كَمْ مِنْ عَزِيزٍ سَيَلَفَى بَعْدَ عَزَّتِهِ دُلًّا وَضاحِكَةً يَوْمًا سَتَبَكِيهَا³¹

فالعزة والذل ضدان لا يجلو نكهما إلا بعد تماثلهما معا في جملة واحدة والكلام نفسه يقال عن الضحك والبكاء . وهذا التتميق مما لاكنه ألسنت الشعراء حتى أصبح ذا دلالات إشارية متعارف عليه

يقول إبراهيم بن محمد بن علي التازي :

فَأَذْكُرُ إِلَهَكَ فِي سِرٍّ وَفِي عِلْنٍ فِي جَمْعٍ أَوْ خَالِيًا وَاسْتَحْضِرُ الْخُلْدَا³²

في بيت التازي هذا طباق خفي يظهر من خلال المعنى لا بد أن نوضحه ، فقد جمع بين لفظتي "جمع" و"خاليا" والمعنى جلي وواضح مثل هذا الطباق كمثل الطباق في قوله تعالى: " أشداء على الكفار رحماء بينهم "³³.

فالرحمة ليست ضدًا للشدة وإنما اللين هو ضد الشدة ولكن الرحمة هي من مسببات اللين فمن هنا جاز الطباق بينهما . هذه الثنائيات التي أصبحت تؤرق مضاجع الشعراء ، بل أصبحت جزءاً من الهواجس المخيفة للعام والخاص تغزو مخيلتهم وسلوكهم قبل أن تغزو أشعارهم ، فهي نسق حياتي دأب على استشعاره الشاعر قبل أن يلجأ لهذا الطباق لجوءاً فنياً في النص لجمالية هذا اللون أو لغاية التلاعب اللغوي ولأنها سلوكاً ومنهجاً نفسياً انعكست على تصوير المعاني المراد إظهارها فأدت وظيفة جمالية في النص وأكثر الأمور أهمية في الأثر الفني والنفسي هو عندما يجمع بين النقااض الحقيقية (سر ، علن) أو الخفية (جَمْعٍ ، خَالِيًا أي منفرداً أو فرداً) في فهم واحد تحكمها علاقة جمالية تخلق مساحة للتوتر النفسي تترك أثرها على المتلقي من خلال الانسجام الإيقاعي لهذين المتضادين ليمنح النص حيوية . هذه الحيوية هي من تقود النص الشعري بشكل خاص إلى توجيه حركة الحياة فهي رؤية متوازنة يمنح الشاعر قدرة الموازنة بين الأشياء في النص فيؤدي التضاد الذي ينشأ من هذه الألفاظ المتعاكسة إلى مستوى تصويري راق في لغة الشعر وذلك بإتمام مفهومي أو أكثر أو تصويرين أو متضادين في بنية واحدة .

يقول سهل بن محمد بن مالك الأزدي (-636) يكنى أبا الحسن له وفادة على مراكش

نهارك في بحر السفاهة تسبح وليلك عن قوم الرفاهة تصبح³⁴

ظهرت الثنائية في لفظتي "نهارك" و "ليلك" والتي اجتمعت في مخيلة الشاعر فهذا التذكير القصد منه الوعظ استعمل الشاعر فيه أسلوب الزجر ليثبت النهي عن ارتكاب هذه الأفعال ثم الأوبة إلى الله ، كل هذا دال على التجربة الشعرية التي تميز بها المغربي وأتقن في إظهار العلاقة التي تقوم بين الضدين ضمن هذه البنية وهو يحاول أن يصنع من خلال انفعاله بهذه الثنائيات رؤيا خاصة ينتقل فيها بين الواقع والحلم والحياة والموت وهذه الرؤيا تشمل ما أحاط به ليس من خلال علاقات المشابهة و إنما من خلال العلاقات المتضادة فيها .

إن استخدام الطباق في النصوص المأخوذة يضيف الجمالية الرائعة في ظاهر اللفظ والدقة في المعنى ، ويجعل للنص روحاً ناطقة تؤثر في سامعيه ، فضلاً عن أن شعر الزهد مؤثر في سامعيه أصلاً، لكن الطباق يزيد في اللفظية والمعنوية شحناتٍ أخر تزيد فيه الحلاوة وصفاء النفس ، وارتياحاً عند سماعه ، وهذا ما وجدناه في أغلب النصوص التي ذكرت .

لقد استعمل أغلب الشعراء المحسنات البديعية في شعرهم ، ولا سيما الطباق ، لعلمهم أنه يضيف عذوبة ووشياً وبهاء على أشعارهم ، فاستحسنوه كثيراً ولا سيما الشعراء المغاربة من أمثال ابن خميس التلمساني ، نأخذه على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فلقد كان يضع في قصيدته شيئاً من المتوازنات والمتطابقات ، وهولا يعبأ أن يوازي بين مختلفين ومتضادين في التكوين الواقعي والمثالي ، والإيجاب والسلب ، والمفرد والمتعدد . يقول ابن خميس في التنزه عن الدنيا:

تَظَاهَرُ بِالسَّلْوَانِ عَنْهَا تَجَمُّلا فَقَلْبُكَ مَحْزُونٌ وَتَعْرُكَ ضَاكِك
تَنَزَّهْتَ عَنْهَا نَخْوَةً لَا زَهَادَةً وَشَعْرَ عَذَارِي أَسْوَدُ اللَّوْنِ حَالِكٌ³⁵

لفظه "محزون" أخذت مكان لفظة "باكيا" وكونت ثنائية مع لفظة "ضاحك" و الكلام نفسه يقال على لفظتي "نخوة" و"زهادة". بغض النظر عن نوع الطباق في كل حالة هناك طباق في المعاني المجازية والحقيقية وهذا مما استحسنه الشعراء في وشي شعرهم وتطريزه .

ومنه نقول : وجود الطباق في النص الشعري ضرورة فنية قادت إليه طبيعة الفن وحاجة اللغة إلى التصوير من خلالها فصارت حاجة جمالية فنية ولغوية .

ولماذا وجود المحسنات البديعية في النص؟... لأنها تركب كلمات اللغة العربية وتكسبها الجمال وإبهار قرائها بجمال أسلوبها وأيضاً هي الوسيلة الذي يستعين بها الأديب للإظهار مشاعره وعواطفه ، وللتأثير في النفس ، وتكون رائعة إذا كانت قليلة ومؤدية المعنى الذي يقصده الأديب أما إذا جاءت كثيرة ومكلفة فأنها تفقد جمالها وتأثيرها ، وقد أصبحت دليل ضعف الأسلوب وأيضاً عجز الأديب ونقول أن المحسنات البديعية أيضاً هي الزينة اللفظية و الزخرفة والتتميق -واللون البديعي - و التحسين اللفظي .

قسم الهوامش

- 1 - انظر: أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، القاهرة مطبعة مدني، ط/ 1، 1991 ، ص32
- 2 - علم البديع - د/بسيوني فيود - ص113
- 3 - ديوان امرؤ القيس ص19
- 4 - شعر سابق لبربري للدكتور بدر ضيف دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية ط 1 ، 2004 ، ص157
- 5 - نفسه
- 6 - البيت لبكر بن حماد، من " الأدب العربي في المغرب العربي " ص 186
- 7 - البيت لعلي الحصري .من الموسوعة
- 8 - البيت لبكر بن حماد . " الدر الوقاد " ص 75
- 9 - الأبيات لأحمد بن أبي سليمان داود الصواف . الأدب العربي في المغرب العربي ص 251 ، 253 ، 255.
- 10 - الأبيات لأحمد بن أبي سليمان داود الصواف . الأدب العربي في المغرب العربي ص 251 ، 253 ، 255.
- 11 - الأبيات لأحمد بن أبي سليمان داود الصواف . الأدب العربي في المغرب العربي ص 251 ، 253 ، 255.
- 12 - العربي دحو . الادب العربي في المغرب العربي ص:250
- 13 - العربي دحو . الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات ص 196
- 14 - العربي دحو . "الأدب العربي في المغرب العربي " ص255.
- 15 - رمضان شاوش ، الدر الوقاد . ص92.
- 16 - أدباء وشعراء من تلمسان ، ج 4 ص14
- 17 - الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث (قسم الدواوين الشعرية).

- 18 - نفسه
- 19 - ابن مريم ، " البستان " ص 61
- 20 - نفسه
- 21 - نفسه
- 22 - سورة آل عمران . الآية 27
- 23 - سورة آل عمران الآية 26
- 24 - سورة الأنعام ، الآية 122
- 25 - بدر ضيف . شعر سابق بن عبد الله البربري ص 81
- 26 - ابن أبي الأصبع ، "كتاب تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن " ج 1 ص 11
- 27 - سورة فاطر ، الآية 5
- 28 - بدر ضيف . شعر سابق بن عبد الله البربري ص 81
- 29 - بوزياني الدراجي ، " أدباء وشعراء من تلمسان " ج 4 ص 18
- 30 - أبو الهلال العسكري ، " كتاب الصنائع " تحقيق : علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ط 2 (د .ت) ص 316.
- 31 - بدر ضيف . شعر سابق بن عبد الله البربري ص 135
- 32 - أحمد بابا التنبكتي ، "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" . ص 56
- 33 - الآية 29 من سورة الفتح.
- 34 - الإحاطة ج 4 ص 281.
- 35 - المقرئ التلمساني ، أزهار الرياض ج 2 ص 305